

مداخلة الرئيس أمين الجميل

في

مؤتمر: "مئة عام على اتفاقية سايكس بيكو: نظام جديد للشرق الأوسط؟"

* * *

بيت المستقبل، 20 – 21 أيار 2016

السرايا - بكفيا

أهلاً وسهلاً بكم في "بيت المستقبل"، صرّح يواكب العصر ويحاكي التاريخ. من هنا كان تنظيم هذا المؤتمر حول اتفاقية سايكس - بيكو. لا نُقيّم هذه الاتفاقية فقط لأن مائة سنة مرّت على وضعها، بل لنستشرف المئة سنة المقبلة في لبنان والمشرق والعالم العربي، ذلك أن اللعبة الدولية / الإقليمية الجديدة سنة 2016 حيال شعوب الشرق الأوسط تماثل بمصالحها وأهدافها ونياتها اللعبة الإقليمية سنة 1916. فيها الثورات الشعبية والأحداث العسكرية المنتشرة في المنطقة، من حدود إيران حتى حدود مصر، تحدث ثغرات في الكيانات التي نشأت نتيجة اتفاقية سايكس - بيكو ومؤتمر "سان ريمو".

في نص اتفاقية سايكس - بيكو المكوّن من 832 كلمة، لم ترد كلمة شعوب، ولا مرّة، ولا عبارة حق تقرير المصير. إن دلّ هذا الأمر على شيء، فعلى أن الجغرافيا أكثر من الانسان كانت معيار هذه الاتفاقية التي صيغت بين باريس ولندن وبطرسبورغ. وأساساً إن مفاوضات سايكس - بيكو بين تشرين الثاني 1915 وأيار 1916، هدفت بدايةً إلى تفكيك السلطنة العثمانية وإعادة توزيع النفوذ الإنكليزي والفرنسي في الشرق الأوسط وبناء كيانات جديدة والتحضير لنشوء دولة إسرائيل. فالنتداب كان الهدف وليس الاستقلال.

وللتوضيح، إن الكيانات الدستورية الحالية في الشرق الأوسط ليست وليدة اتفاقية سايكس - بيكو فقط، بل مزيج من اتفاقات مؤتمرات باريس وسان ريمو وسيفر بين سنتي 1918 و 1920 ومعهاهدة "لوزان" سنة 1923. المؤتمرات حددت الكيانات الوطنية والحدود الدولية، أما اتفاقية سايكس - بيكو فخلقت مناطق نفوذ جغرافية.

يومها كان الشرق الأوسط شعوباً دون كيانات دستورية، وأراض دون حدود دولية معترف بها. في أرجائه تنتشر ولايات وإمارات وسنجقيات حَسب هوى السلطنة العثمانية، وحسب علاقات أعيان العشائر والقبائل مع الوالي العثماني أو الصدر الأعظم. أما جبل لبنان، فبرز حالة مميزة إذ استطاع بفضل صمود أبنائه، الدروز والموارنة، وبفعل خصوصيتهم وتواصلهم مع أوروبا، أن يحافظ على حكم ذاتي شبه دائم طوال الزمن العثماني.

أن تكون شعوب الشرق الأوسط، آنذاك، كيانات مبعثرة، لا يعني أنها كانت بلا أحلام وقوميات، بلا حضارة وتاريخ، بلا أمجاد وتراث. فالشرق هو مهد الحضارات والأديان قروناً قبل العثمانيين.

ويحكم هذه التعددية التاريخية المتعاقبة، طبيعي أن تشعر غالبية شعوب هذا الشرق وأممهم بخيبة وطنية وامتعاض وجداني نتيجة الرسومات الجيو كيانية التي نشأت بعد سقوط السلطنة العثمانية في إطار اتفاقية سايكس - بيكو وتوابعها. وما زاد من حنق أهل الشرق وقادته أن الدول الأوروبية المنتصرة، ولاسيما بريطانيا، وعدتهم بالدولة العربية الكبرى من دون أن تفي بوعداتها.

وتقضي الموضوعية أن نشير إلى أن الحركات القومية العربية آنذاك كانت تيارات نخبوية أكثر مما كانت شعبية، بمعنى أن الوعود قُطعت للقادة وليس للمجتمعات، لا بل أن مجتمعات عديدة كانت مرتاحة للكيانات الناشئة. محور الصراع لم يكن بين الشعوب، بل بين حكومتي فرنسا وبريطانيا أولاً، ثم بينهما من جهة وزعماء من المنطقة من جهة أخرى. كل طرف كان يبحث عن تقسيمات على قياس طموحاته ومصالحه، فيما الشعوب كانت تضمّد جروحها من الاحتلال العثماني والحرب.

لكن المفارقة الصاعقة هي أن بينما كان الموفد الإنكليزي لورانس العرب يَحثّ العرب على الثورة على الجيوش العثمانية مع وعدٍ مكتوب بإقامة الدولة العربية من خلال رسائل المفوض السامي البريطاني في مصر هنري ماكماهون إلى الشريف حسين، كان الديبلوماسيان، البريطاني مارك سايكس، والفرنسي فرنسوا - جورج بيكو، يتفقان على

مشروع مناقض يقضي بفصل المشرق عن شبه الجزيرة العربية وإنشاء كيانات متعددة فيه. وبموازاة هذه الازدواجية، برز تناقض ثالث تجسّد "بوعد بلفور" حيث التزم وزير خارجية بريطانيا آرثور بلفور، باسم الحكومة البريطانية، للحركة الصهيونية في لندن بتسهيل إنشاء الكيان الصهيوني في فلسطين. ويمكن أن نضيف إلى المشاريع الثلاثة مشروعاً آخر هو وعدٌ بإقامة كيان كردي في شرق الأناضول ورد في اتفاقية "سيفر" سنة 1920، لكن الفكرة سقطت بسبب الحركة القومية التركية بزعامة مصطفى كمال أتاتورك.

أما روسيا، التي كانت الطرف الثالث في المفاوضات مع بريطانيا وفرنسا لاقتسام الشرق الأوسط وهندسته من خلال وزير خارجيتها سazanوف، فكشفت عن وثائق اتفاقية سايكس - بيكو إثر اندلاع الثورة البولشيفية سنة 1917 وسقوط القيصر نقولا الثاني. وها هي روسيا الجديدة القديمة، تستلحق اليوم دورها الذي فقدته في بداية القرن الماضي وتسعى لاقتسام الشرق الأوسط هذه المرة مع الولايات المتحدة الأميركية. أفليست مفاوضات كيري - لافروف مشابهة بأهدافها لمفاوضات سايكس - بيكو؟ واستطراداً، أليست الوعود الغربية التي أعطيت لبعض الثورات العربية لكي تنتفض على الأنظمة القائمة مشابهة بوعود لورانس العرب للشريف حسين ونجله فيصل؟ وفي نفس السياق أليست الالتزامات التي يقدمها دائماً الغرب الجديد (أميركا وأوروبا وروسيا) لإسرائيل حيال وجودها وأمنها وتفوقها العسكري تنمة لوعده بلفور؟

بغض النظر عن تقويمنا القومي لاتفاقية سايكس - بيكو، وعن الانزعاج الذي تشعر به الشعوب حيال أي استعمار، وبغض النظر عن إدانتنا لدور هذا الاستعمار في تهيئة الظروف لإنشاء دولة إسرائيل، إن الحضور الفرنسي والانكليزي في العالم العربي بعد انتهاء الاحتلال العثماني كان عاملاً مساعداً لعدد من الجماعات الحضارية لأن تجد كياناً دستورياً يجسد وجودها التاريخي ودورها المميز؛ ولبنان هو في طليعة هذه الكيانات. كما أن الحضور الفرنسي والانكليزي حدّ من نشوب فتنٍ وحروب أهلية وقبلية بين مكونات الشرق الأوسط. فمن اللافت أن تكون كل الحروب والانقلابات التي نشبت في العالم العربي ولاسيما في الخليج والمشرق حدثت بعد انسحاب قوات الانتداب أو الاستعمار وبعد نيل الاستقلال: من حرب اليمن إلى الحروب الحدودية في الخليج، من حرب الأردن إلى حرب لبنان، من الحرب العراقية الإيرانية إلى احتلال العراق للكويت، ومن الانقلابات العسكرية في غالبية الدول العربية وصولاً إلى الثورات الضائعة والارهاب التكفيري والجهادي.

من مفارقات التاريخ الحديث أن الشعوب العربية التي كانت تناضل لتغيير الكيانات التي استحدثها اتفاق سايكس - بيكو والمؤتمرات اللاحقة بعد الحرب العالمية الأولى (1914 / 1918)، أصبح أقصى مناهها، اليوم، بعد الثورات العربية المشوهة (2010 / 2016)، أن تحافظ على كياناتها وتنقذ حدودها الدولية التي أرستها مندرجات اتفاقية سايكس - بيكو. والواقع إن كيانات سايكس - بيكو صمدت على العموم من باب المنذب في الخليج إلى الناقورة في لبنان طوال مئة سنة. وباستثناء اجتياح داعش للحدود السورية - العراقية، كل محاولات تعديل هذه الكيانات تجري، حتى الآن على الأقل، من داخل حدودها باتجاه اعتماد الفدراليات وأقاليم الحكم الذاتي، ما يعني أن هذه الكيانات لم تكن أصغر من طموح المكونات الاجتماعية، وتحديداً الإسلامية، بل أكبر أحياناً.

تراجعت مشاريع القومية العربية، لا بل انهارت العروبة أمام التطرف الديني ومشاريع تقرير المصير التي تسعى إليها مكونات الشرق الأوسط. أصبحت العناصر العرقية والإثنية والمذهبية عصب تقرير المصير ومعيّار رسم الدويلات

الجديدة وليس الانتماء القومي الكبير. بتعبير آخر، انتصرت الأحلام الدفينة والمكتومة على الحلم العربي المعلن والذي لم يجد يوماً منفذاً واقعياً للتنفيذ.

هكذا، إن سايكس - بيكو القديم نقل المشرق من ولايات غير معترف بها إلى دولٍ معترف بها دولياً. أما سايكس - بيكو الجديد فسيحوّل الدول كانتونات. والفارق الآخر هو أن الهندسة الأولى كانت أجنبية الصنع، بينما الهندسة الجديدة هي صنع عربي وإسلامي بدعم أجنبي.

تَقَبَّلَت الشعوبُ العربيةُ الكياناتِ الناشئةَ بعد سقوط السلطنة العثمانية ولم تَقُمْ بثورةٍ واحدةٍ لتوحيدِها. فمنذ انحسارِ الاستعمارِ البريطانيِّ/الفرنسي، لم يَتَمَخَّضِ العالمُ العربيُّ إلا عن انقلاباتٍ التَحَفَّتْ فكرةُ القوميةِ للاستيلاءِ على الحكمِ. والمُحزِنُ أنَّ هذه الشعوبُ صَفَّقَتْ لكل أنواعِ الانقلاباتِ، للشيءِ وضده، للوحدةِ والانفصالِ، للآتي والذهابِ، للبطلِ والعملِ، للمُنْتَصِرِ والمنهزمِ، للديمقراطيةِ والديكتاتوريةِ، للملكيةِ والجمهوريةِ، للحُكْمِ الوطْنيِّ والمستعمرِ.

تتجه شعوب الشرق الأوسط للخروج من كيانات سايكس - بيكو والعودة إلى كيانات السلطنة العثمانية دون ولوج كيان الأمة العربية التي لم تتحقق يوماً لأنها أصلاً هي مجرد حلم أو شعور لحالة مجازية. فلقد عرفنا عبر التاريخ: الفتح الإسلامي، الدولة الإسلامية، الخلافة الإسلامية، لكننا لم نعرف يوماً دولة الأمة العربية. واتفاق سايكس - بيكو هو أول مشروع ممهّد للقاء الشعوب العربية المشرقية. وإذا كانت أسباب مختلفة تكمن اليوم وراء ترنح بنية سايكس - بيكو، ومن بينها بالتأكيد إقامة الدولة العربية، فيبقى السبب الأساسي سوء إدارة الأنظمة العربية لشعوبها ومجتمعاتها ودولها، وسوء فهم الشعوب لمفاهيمها الدينية والقومية. فالتقت أخطاء البيت العربي مع مؤامرات الخارج. بصراحة، هل اتفاقية سايكس - بيكو هي سبب البلاء أو واقع الأنظمة العربية وفقدان الحوكمة الرشيدة والحرية، وتناوب الديكتاتورية والفكر الشمولي العقائدي والديني؟

خِلافاً لما هو شائعٌ، لم يكن لبنان وسوريا مُوحَّدَيْنِ حتى نَتَهَمَ اتفاقية "سايكس بيكو" بِفُصْلِهِمَا. فلبنانُ كان مُتَصَرِّفِيَّةً مَقْصُومَةً الأَقْصِيَّةِ الأربعة (من الساحلِ والجنوبِ والبقاعِ والشمالِ)، وسوريا ولاياتٍ مُتَفَرِّقَةً (دمشق، حلب، جبل الدروز، الساحل العلوي ولواء إسكندرون).

وخِلافاً لما هو رائجٌ، ليس لبنانُ الحاليُّ وليدَ اتفاقيةِ سايكس بيكو. إنّه ثمرةُ عُنَادِ أعيانِ لبنان، وفي طليعتهم الموارنة بقيادة البطريرك الماروني الياس الحويك، الذين أُنْعَمُوا فرنسا في مؤتمرِ باريس (1918 و 1919) وسان ريمو (1920) بتصويب تلك الاتفاقية وإنشاء كيانٍ لبنانيٍّ مُسْتَقِلٍّ على كاملِ الأراضي اللبنانية. ذلك أن اتفاقية سايكس - بيكو وضعت المناطق اللبنانية والسورية (من رأس الناقورة جنوباً حتى كيليكيا شمالاً) ومن بحر المتوسط غرباً حتى سوريا الداخلية شرقاً) تحت النفوذ الفرنسي من دون الإشارة إلى حدودٍ داخليةٍ وكياناتٍ مُسْتَقِلَّة.

تَمَكَّنَت تلك الوفودُ، بعدَ جُهدٍ، من تمييزِ لبنانَ في صَفْقَةِ سايكس . بيكو وتوحيده، ومن الحصولِ على مبدأ الاعترافِ باستقلاله أيضاً حَسَبَ منطوقِ أحدِ بنودِ المادةِ 22 من وثيقةِ جمعيةِ الأمم. كما تمكنت تلك الوفودُ، بواسطةِ فرنسا، من انتزاعِ اعترافِ عربيٍّ بوضعِ لبنانِ المَمَيَّرِ، أعلنه الأميرُ فيصلُ بنِ الشريفِ الحسين حاكمِ دمشق. أما سوريا فبقيت خمسَ ولاياتٍ مُنفصلةٍ الواحدة عن الأخرى، وذاتِ طابعٍ طائفيٍّ ومذهبيٍّ (سُنِّيٍّ، عَلَوِيٍّ، دِرْزِيٍّ ومُخْتَلِطٍ).

واجه اللبنانيون، إذن، نصَّ اتفاقيةِ سايكس . بيكو (مساحةً لبنانيةً . سورية تحت نفوذٍ فرنسيٍّ بدونِ حدودٍ داخليةٍ)، ورَفَضُوا مَنَظِقَ وَعَدَ بَلْفُورِ (وطنٌ قوميٌّ مسيحيٌّ على غرارِ إسرائيل)، واختاروا مشروعَ الوحدةِ (التعايشُ المسيحيُّ

. الإسلامي . الدرزي) والاستقلال (القرار الحر) والديمقراطية (الشعب مصدر السلطة). وأكد اللبنانيون على هذا التوجه في ميثاقهم الوطني إثر الاستقلال سنة 1943.

على العموم، التعديلات التي أدخلها مؤتمر باريس وسان ريمو على اتفاقية سايكس - بيكو أدت إلى الأخذ بالاعتبار جزءاً هاماً من رغبات شعوب الشرق الأوسط حيث أعطت للكيانات التي نشأت تبعاً في لبنان وسوريا والأردن والعراق مفهوم الدولة - الأمة الذي كان سائداً في أوروبا آنذاك، فكانت لهذه الكيانات أيضاً القدرة الاقتصادية على الحياة والتطور والاكتفاء الذاتي. بتعبير آخر زاوجت اتفاقية سايكس/بيكو بين الخصوصية الحضارية للمجتمعات والشعور القومي للشعوب. وقد لعبت أميركا دوراً مؤثراً في وضع الانتداب الفرنسي والإنكليزي في كنف عصبة الأمم. لكن النفق الذي دخلته منطقة الشرق الأوسط (ولبنان بالطبع) منذ عقد ونصف، ولاسيما منذ اجتياح أميركا العراق، لن تخرج منه قبل عقود. فالنظام الإقليمي الجديد لن يقوم على أرض الشرق الأوسط بمجرد طابعه على الورق في الدوائر الأميركية والأوروبية وفي مؤتمرات فينيا وباريس وجنيف وبروكسل. سقوط الإمبراطورية العثمانية استغرق حوالي تسعين سنة (1830 / 1920)، وتحقيق "وعد بلفور" إحدى ثلاثين سنة (1917 / 1948)، وتنفيذ "سايكس - بيكو" ثلاثين سنة (1916 / 1946)، ونشوء الوحدة الأوروبية ستاً وثلاثين سنة (1957 / 1993).

الرهان اليوم هو على مدى قدرة الشعوب العربية على اختصار مخاضها فتنتقل من الحرب إلى الحلول السياسية، وعلى مدى قدرتها أيضاً على استعادة استقلالها ليس من المستعمرين الغربيين كما كانت الحال، بل من الحالة الإسلامية الجهادية والتكفيرية العربية والإقليمية، ومن الجهل والأنظمة الأحادية.

والرهان أيضاً هو على مدى قدرة لبنان على ألا يتورط لا في حروب الآخرين، بل في خرائطهم أيضاً. إن رسالة اللبنانيين، لا مصلحتهم فقط، تحتم عليهم أن يحافظوا على خريبتهم التاريخية ودولتهم الديمقراطية وصيغتهم التعددية وخصوصياتهم الحضارية. وإذا كان لنا في العقود الماضية هامشاً للعبث، فالمرحلة المصرية الآن لا تسمح بالمغامرة والمجازفة والانحياز. حتى هذه الساعة، كان اللبنانيون يؤكدون تمسكهم بكيان لبنان الواحد، ولا يزال لبنان واحداً رغم الانقسامات القائمة.

ولأننا نريد أن نعتبر من أحداث التاريخ نطلق هذا المؤتمر الذي يشترك فيه نخب فكرية تمثل مختلف الأحاسيس الثقافية والمكونات الوطنية، شرقاً وغرباً. وهي مرجعيات في مجتمعاتها ومنتدياتها ودولها. لا نعقد هذا المؤتمر للنقاش والذكرى فحسب، بل للخروج بأمثولات التاريخ وبتوصيات للبنان المتجدد وللشرق الأوسط الباحث عن نور المستقبل.